

جورج كانغليم والابستمولوجيا البيولوجيا

سنقتصر في هذا الموضوع على نصوص أصلية ومنها هذا النص

في الفريد والفرادة في الابستمولوجيا البيولوجيا

"...أن تجعل فرادة بعض البنى والوظائف الحيوية الأساسية انتباه الطبيعيين في القرن الثامن عشر متيقظا إلى هذا الحد، فإن ذلك لا يفسر فقط بالعائق الذي يمثله #الفريد# أمام كل بحث مغرم بالتمثيل، وإنما كذلك بواقع أنه في ذلك العصر كان التاريخ الطبيعي شأنًا يهتم به الفضوليون، كما يهتم به العلماء على حد سواء. ان ميدان اهتمام موزع بين الفضولي والعالم هو بالضرورة ميدان يتنازعه ذوق المفاجأة وعزيمة الفهم. أضف الى ذلك، أن التاريخ الطبيعي ليس الوحيد الذي يعرف هذا الاختلاف في محور الاهتمام . لقد كتب "فونتونال" في تقريره "لهومبارغ" **Eloge de Homberg** : "كان قد ألفت لنفسه فيزياء كلها من الوقائع الفريدة، وغير المعروفة معرفة جيدة، مثله مثل هؤلاء الذين من أجل أن يتعلموا التاريخ الحقيقي يأتون بالوثائق الأصلية المخبأة في الأرشيف تقريبا.

وتوجد كذلك طرائف الطبيعة". وليس من المصادفة يقينا أن "المبرت" في الخطاب التمهيدي للموسوعة، بعد أن قابل بين الفكر المنهجي الحقيقي وفكر النسق، يصل الى الحديث عن المغناطيس. ها هو موضوع من شأنه أن يجعل أفكارا تستقر في ظلمات الأنساق في حين أنه ما كانت تريد أن تكون إلا منهجية. كتب "المبرت" يقول أن المغناطيس كان ميدانا لاكتشافات "مذهلة"، وتنوع ميله نحو القطبين هو تنوع "مدهش" ، وخصائصه كلها خصائص فريدة، ويظل أصلها "مجهولا" لدينا. انه مثال وجيه ويسمح بفهم التريط اللازم بين ذوق "الخفي" وذوق الفريد. فزعة البحث عن الخفي تولد بسهولة في سياق الامبريقية. عندما نكون منفتحين على كل المظاهر ومستعدين لتقبل النور من أي مكان، وعلى أي شيء كان، فإن شيطان التماثل يمكن أن يعد لنا ما أستطاع من قوة.

إن الإعجاب الذي أثارته خصائص المغناطيس ذهب الى حد خلق أنساق مغناطيسية كونية. ولم يتردد كل من بومبوناتي **Pomponazzi** و **Bruno** ، و **Paracelse** ، و **Mesmer** مؤخرا في جعل المغناطيس يتماها مع السببية الكونية في العالمين الكبير والصغير . وفي المقابل، فإن الفكر العقلاني، الفكر الذي يرى أن العلم هو أولا نظرية وبرهنة، يحذر مما يبدو نادرا أو غريبا. فبقدر ما يدخل من نظر في علاقة تجربة، تبدو هذه التجربة أقل مشهدية، وقد علم ديكارت دائما بأنه يتعين في مادة التجربة البدء بأكثرها عمومية، وأنه يتوجب علينا أن نكون متقدمين في النظرية لكي نشرع في دراسة الأشياء الغريبة.

فليس للعلوم المريضة في القرن الثامن عشر، تلك التي يسميها "المبرت" في الخطاب التمهيدي فيزيائية رياضية، أي البصريات والميكانيكا في رأيه، أن تهتم بطرائف الطبيعة خلافا للبحوث المأخوذة بفرادة حجارة المغناطيس أو بالشرارة الكهربائية.

ومع ذلك، إذا ظهرت الفردات الفيزيائية أو العضوية حينئذ مرموقة جدا، وهامة بصورة فريدة جدا للمعرفة الطبيعية، فإن ذلك على الأقل من أجل استعمالها للاحتجاج على قيمة الأنساق، بالقدر الذي تحث فيه المخيلة على صنعها باستمرار. وبالطبع ليست الأفكار نفسها هي التي تكون حساسة لقيمة الاحتجاج هذه، أو لقيمة الانهيار. ونعرف معرفة كافية، إلا أننا ننسى بكثرة، أن القرن الثامن عشر هو في الوقت ذاته قرن التنوير وقرن الإشراق، فعند الطبيعيين قد حان وقت إدانة الأنساق وإشهار المناهج".
ص315-316

النص مأخوذ من كتاب جورج كانغيلام بعنوان (دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها) ترجمة محمد بن ساسي.
ط1، بيروت 2007. ص 315-316

Canguilhem Georges
Etudes d'histoire et de la philosophie des sciences.
Librairie philosophique J. Vrin, Paris, 1994

ان اختيارنا لهذا النص من هذا الكتاب وفي هذين الصفحتين اختصارا لرأي هذا الاستمولوجي في موضوع يخص البيولوجية، وهذا ما نجده في فهرس كتابه من صفحة 313 إلى 489.
يتعرض في الكاتب الى تاريخ العلوم من زاوية فلسفية أي المشاكل الاستمولوجية التي اعترضت علوم الحياة في نشأتها ومسارها مثل الفردانية (الكائن الحي لا يملك مثيلا مطابقا له كل المطابقة).
يطلق مصطلح علوم الحياة على كل العلوم التي تدرس الكائن الحي بمختلف أنواعه، الذي يتقاسم خصائص واحدة تعبر عن مظاهر الحياة، من حياة وموت، من تنفس وتكاثر... تعتبر من العلوم الطبيعية التي تأخرت عن الركب أي في انتقالها من اللاعلم إلى العلم بمقارنتها بعلوم الفيزياء. ومن العوائق الاستمولوجية التي اعترضتها:

- خواصها الجوهرية الحياة، مما يجعل التجريب عليها أحيانا يصبح مستحيلا.
- التحليل عائق يشل البحث على الكائن الحي وخاصة البشر، لأننا لا نستطيع ان نأخذ جزءا من جسم الانسان وندرسه منفصلا عن الكل، لأن هذا الجزء سيفقد حياته أو على الأقل وظيفته.

- إذا كان الاستقراء من خواص العلم التجريبي فإنه يعاني من مشكل الفردانية التي أشار اليها صاحب النص، أي أن لكل كائن حي فردانية خاصة به. ولا يمكن لأي نظرية علمية في ميدان البيولوجيا أن تعمم نتائجها بناء على هذه المشكلة المطروحة.
 - مما جعل من العلوم البيولوجية علوما تنقصها الدقة العلمية. والدليل على ذلك ما يعاني منه علم الطب في الزمن الماضي والحاضر من صعوبات امام التجريب على الكائن الحي.
- الخاتمة: رغم هذه الصعوبات التي تواجه التجريب في البيولوجيا إلا أن هذا لم يثن عزيمة البيولوجيين والأطباء من اقتحام هذا الميدان. ويبقى عمل الابستمولوجية متواصلا لتذليل هذه العوائق أمام البحث العلمي.